التأثير العربي في الثقافة الأوربية بين الرفض والقبول

الدكتور كمال عبد الفتاح السامرائي
جامعة تكريت . كلية التربية / سامراء . قسم علوم القرآن

توطئة :

إن البحث في موضوع التأثيرات الثقافية والحضارية بين الشعوب المتباينة والأمم المختلفة واللغات المتنوعة ؛ من الموضوعات الحيوية التي تهتم بها الدراسات الحضارية المقارنة ، وعلم تاريخ الحضارات . وهو إلى جانب ما له من أهمية علمية كاشفة عن جذور كثير من الحقائق العلمية التي توصل إليها الإنسان في مجال الدراسات الاجتماعية والأفكار الفلسفية ، فانه يحدد بدقة مجالات العطاء العلمي في كل فروع المعرفة الأخرى ، من طبيعية ورياضية وفنية ... الخ . كما انه يحدد الزمن ويبين مدى مساهمة الشعوب في كل بقاع الأرض في أي فرع من فروعها العلمية والإنسانية . بل انه ليتجاوز ذلك إلى الاهتمام بالمبدعين وتوثيق ذلك في مجال العلم والمعرفة وتبيان أثرهم على هذه المسيرة الإنسانية .

وموضوعة انتقال العلوم والمعرفة والإبداع العلمي والإنساني ــ العربي والإسلامي ــ إلى الفكر الأوربي من أهم الموضوعات التي تدخل من ضمن إطار مفهوم التاريخ العام للعلم ومفرداته ، ويعد من أهم موضوعات التاريخ الحضاري المقارن .

فالمراجع الحديثة تؤكد اثر العرب في القارة الأوربية وتعود به إلى أزمنة أقدم من التاريخ الذي افترضه وقال به بعض العلماء والباحثين . وهذه المراجع الحديثة تزودنا في العصور التاريخية بالبراهين التي كنا بحاجة لها لتقرير بعض الحقائق والخروج بها من دائرة الظن والاستنتاج المعقول إلى حقائق علمية لا تقبل الشك أو الرفض عن مدى تأثير الثقافة العربية والإسلامية بالقارة الأوربية .

والذي نعتقده ــ على أية حال ــ أن العقل ليرفض كل الدعوات التي تقول إن قيام الأدب العربي في الأندلس قد ذهب من صفحة التاريخ الأوربي من دون اثر مباشر على الأذواق والأفكار والموضوعات ، وبعض الدواعي النفسية والأساليب اللغوية التي تستعملها الآداب .

ونؤمن بقناعة أن أوربا كانت تتلقى آثار الثقافة العربية من ثلاث جهات متلاحقة في القرون الوسطى ، سنذكرها ليكون الاعتقاد يقيناً لا محالة من قبوله والانتماء له . وهي تقسم :

أولاً : جهة القوافل التجارية التي كانت تغدو وتروح بين آسيا وأوربا الشرقية والشمالية من طريق بحر الخزر أو طريق القسطنطينية ، وربما كانت هذه هي الطريق التي وصلت منها أطراف الأخبار الإسلامية إلى البلاد الاسكندينافية .

والجهة الثانية : هي جهة المواطن والبقاع التي احتلها الصليبيون وعاشوا فيها زمناً طويلاً بين سوريا ومصر وسائر الأقطار الإسلامية .

والجهة الثالثة : هي جهة الأندلس وصقلية وغيرها من البلاد التي قامت فيها دول المسلمين وانتشر فيها المتكلمون باللغة العربية[١] ، وأصبحت ثقافة البلاد ثقافة عربية إسلامية خالصة . وهو يعد أهم المؤثرات وسيكون بحثنا مقتصراً على هذا الجانب .

المبحث الأول

التأثير العربي الأندلسي في الثقافة الأوربية

١. اللغة :

من دون شك أن الدخول في موضوع التأثر والتأثير لا بد من أن يبدأ بالممهد الأول والأساس لهذه المسألة ، ألا وهي (اللغة) لأنها بداية تناول ثقافة الآخر والتأثر بها . ولعل أول مظهر لهذا التأثير العربي في الحياة اليومية الاسبانية يتجلى بوضوح في اللغة الاسبانية الحديثة ــ التي احتوت كثيراً من المفردات العربية ــ على الرغم من المحاولات التي قامت بصورة رسمية ومدروسة ، في أواخر القرون الوسطى وأوائل العصور الحديثة لدراسة المفردات الاسبانية واستخراج الكلمات العربية التي كانت شائعة فيها ، والاستعاضة عنها بما يمكن أن يؤدي مفهومها ، ولو بصورة تقريبية ، من المفردات اللاتينية . وعلى الرغم من القوانين التي صدرت بتحريم استعمال الألفاظ العربية في اللغة الاسبانية ، أقول على الرغم من هذا كله ، لا يزال في اللغة الاسبانية اليوم أكثر من سبعة عشر بالمائة من مفرداتها عربي الأصل[٢] . وهذا ليس بالأمر الهين على لغة ما ، ويدل على عمق التأثير وأثره في التركيبة الثقافية للبلد . ولم يقتصر التأثير العربي في اللغة الاسبانية على مفردات اللغة ، بل تعداه إلى تركيبات وتعبيرات لغوية كثيرة ترجمت حرفياً عن العربية لتعبر عن المعنى نفسه في الاسبانية لما للغة العربية من قبول واسع عند الآخرين ــ حتى وان لم يكونوا عرباً ــ لأنها لغة حية تتمتع بمزايا لا تتواجد في اللغات الأخرى .

وإذا كانت المفردات الاسبانية ذات الأصول العربية قد حظيت بعناية العلماء ، فان هذه التعبيرات الاسبانية المترجمة حرفياً عن العربية ، لم تحظ بأية دراسة حتى الآن[٣] . وهذه احد وجوه التقصير عندنا نحن العرب لإهمالنا ما يمكن أن نثبته للآخر عن مدى عمق التأثير وان كان الأحرى بعلماء اللغة الأوربيين أن يبينوا ذلك ولو من باب التلاقح الثقافي ، إلا أن الأثر الذي يفوق هذه المقتبسات الفردية جميعاً هو الأثر الشامل الذي يعزى إليه اكبر الفضل في إحياء اللغات الأوربية الحديثة وترقيتها إلى مقام الأدب والعلم ، بعد أن تجافى عنها وازدراها العلماء والأدباء ، وبعد أن كانت الآداب والعلوم لا يكتب فيها احد غير رجال الدين

ومن في حكم رجال الدين ، وهم يقصرون الفهم على أنفسهم ولا يشركون فيه جمهرة الشعب ولاسيما طبقة السواد ، فقد كان شيوع التعليم بالعربية سببًا لإهمال اللاتينية والإغريقية وخطوة لا بد منها لإحياء اللغات الشعبية وتداول الشعر والبلاغة والعلم من طريق غير طريق القسسة والرهبان المنقطعين للبحوث الدينية .

ويروي لنا المستشرق (دوزي) في كتابه عن (الإسلام الأندلسي) رسالة ذلك الكاتب الاسباني ــ الفارو القرطبي ــ الذي كان يأسى اشد الأسى لإهمال لغة اللاتين والإغريق والإقبال على لغة المسلمين ، يقول : ((إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها)) [٤] ، وهو بقوله هذا يؤكد على التأثير اللغوي العربي الكبير في اللغة اللاتينية وإهمالها ، والإقبال على اللغة العربية التي تحوي بكلماتها وتعبيراتها سحرًا قد جذب غير العرب لتذوقها وتعلمها وإحلالها محل لغتهم .

وكتب الفارو يقول : ((إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح ... إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبًا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية)) [٥] ، ويكمل اعتراضاته المتوالية على إقبال المسيحيين على اللغة العربية بقوله : ((إن المسيحيين قد نسوا لغتهم ، فلن تجد فيهم اليوم واحدًا في كل ألف يكتب بها خطابًا إلى صديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعرًا يفوق شعر العرب أنفسهم في الأنافة وصحة الأداة ...)) [٦] .

لهذا نجد أن اللغة العربية قد انتشرت في الأندلس انتشارًا سريعًا وواسعًا بين الأسبان المعايشين للعرب ، ولم يكن قد مضى على الفتح العربي نصف قرن من الزمن ، ويبدو أن ظاهرة استعراب الأسبان كانت تسبق دخولهم إلى الإسلام في أغلب الحالات ، فكان عجم الأندلس يختلطون بالعرب ، فيأخذون عنهم لغتهم وأسلوب حياتهم، وكانوا في الوقت نفسه يحتفظون بحرية تامة في ممارسة شعائرهم الدينية المسيحية ، وهو أمر اتسم به الإسلام من دون الديانات الأخرى ، ليعطي دليلاً على تسامحه وعظمته ، ثم كان يسلم من شاء شيئًا فشيئًا ، ولدينا نصوص لاتينية معاصرة تثبت هذا وتبين أن قسمًا كبيرًا من المثقفين المسيحيين في قرطبة كانوا راضين عن أوضاعهم الاجتماعية تمام الرضا ، وأن كثيرا منهم كانوا ينضمون إلى الجيش العربي الإسلامي ، وأن آخرين كانوا يتولون في بلاطات الأمراء العرب ، وتدر عليهم عوائد مجزية ، وكانوا يقلدون العرب في كل شيء ، ويقبلون على اللغة العربية والأدب العربي بنهم ، ويحتقرون اللغة اللاتينية وآدابها أيما احتقار)) [٧] .

على أن هذا لا يعني أن اللغة العربية الفصحى هي اللغة الوحيدة المستعملة بين الأندلسيين ، فمنذ القرن الثاني أو الثالث الهجريين على الأكثر حتى القرن التاسع كانت هناك إلى جانب العربية الفصحى لهجات أعجمية دارجة فيها عناصر من الأيبيرية والعربية ، ولكن الغالب عليها الطابع اللاتيني ، وكانت هناك ازدواجية لغوية بين عامة الشعب الأندلسي المكون من خليط من العناصر المختلفة ، فلم تكن العربية الفصحى لغة الأدب والفكر للمسلمين الأندلسيين فقط ، بل كانت أيضًا لغة الثقافة والأدب للمسيحيين الأسبان المعايشين للعرب والمثقفين منهم خاصة ، مما يعطي دليلاً على أن اللغة العربية الفصحى هي اللغة الراقية التي يكتب بها الأدب ويدون بها العلم .

وكان في هذا المجتمع الأندلسي ذي العناصر القومية المختلفة والأجناس المتنوعة كانت إلى جانب اللغة العربية الفصحى اللغة اللاتينية الفصحى ، وكان مجال استعمالها ضيقًا ، إذ كانت لغة الطقوس الدينية ، وفي أحيان قليلة لغة أدبية لبعض المناطق المتفرقة ، وإلى جانب هاتين اللغتين كانت هناك لغتان دارجتان هما : العربية والأندلسية الدارجة ، واللاتينية الدارجة ، وهي التي كانت تعرف بـ (الرومانثي Romance) ، والتي تطورت عنها اللغة القشتالية أو الاسبانية ، وهاتان اللغتان الدارجتان مستعملتان في الشؤون اليومية بين العرب والأسبان الأندلسيين على السواء[٨] . وتنوع اللغات واللهجات المستعملة في بلاد الأندلس يضاف كدليل على التنوع الثقافي والمعرفي للمجتمع الأندلسي في ظل حكم العرب والمسلمين.

٢. الأدب

أ. الشعر :

أما الأثر الآخر الذي يمكن الحديث عنه فهو تأثير الشعر العربي الأندلسي في الشعر الأوربي ، وهذا ما نلمسه في امتزاج الطبيعة والغزل في القصيدة العربية الأندلسية ، لما يمثله هذان الموضوعان من أهمية كبرى منطلقة من تأثير البيئة الأندلسية الجميلة والخلابة ، والتي يستوحي الشاعر منها جل موضوعاته ، ولاسيما الطبيعة والغزل ، وهذه الجوانب تعد من المميزات التي ينماز بها الأدب الأندلسي ، وخير من يمثل هذا الامتزاج الشاعر ابن زيدون في قصيدته (القافية) المشهورة ، والتي عارضها كثير من الشعراء العرب ، وحتى الشعراء الغربيين[٩] ، والتي يقول فيها :

إِنّي ذَكَرتُكِ بِالزَّهراءَ مُشتاقاً
وَالأُفقُ طَلقٌ وَمَرأى الأَرضِ قَد راقا
وَالرَوضُ عَن مائِهِ كَما شَقَقتَ عَنِ اللَبّاتِ أَطواقا
الفِضيِّ مُبتَسِمٌ

نَلهـــو بِمـــا يَـــستَميلُ جـــالَ النَـــدى فيـــهِ حَتّـــى مـــالَ أَعناقـــا

العَـــينَ مِـــن زَهَـــرٍ

كَـــــأَنَّ أَعيُنَـــــهُ إِذ عايَنَـــــت أَرَقـــــى

بَكَـــت لِمـــا بـــي فَجـــالَ الـــدَمعُ رَقراقـــا

وَردٌ تَـــــأَلَّقَ فـــــي ضـــــاحي مَنابِتِـــــهِ

فَـــازدادَ مِنـــهُ الـــضُحى فـــي العَـــينِ إِشـــراقا[١٠]

لقد أثرت هذه القصيدة في الشعراء ، وتجاوز أثرها الشعراء العـرب إلـى شـعراء الطبيعة الغربيين الذين يربطون بين الطبيعة والحب[١١] ، واهتم بها الشعراء أيمـا اهتمـام، إعجابًا بها ، وقد كان تأثيرها يمتد إلى باقي الدول الأوربية وشعرائها ، مقلدين ومتأثرين بهذه القصيدة .

ولعل السبب في هذا الامتزاج (بين الطبيعة والغزل) في الأندلس هو نمو شخـصية المرأة في الإسلام نموًا عجيبًا ، إذ أباح لها الاستقلال المادي ، ومكنها من تنمية شخـصيتها الاجتماعية ، معتمدة على القانون الأخلاقي الجديد ، ومن هنا نما الشعر العـذري ، وقاسـى الشعراء عواطفهم المكبوتة في شعر بلغ من الرقة والعذوبة مبلغًا عظيمًا ومتـداخلاً تـداخلاً طبيعيًّا مع البيئة الأندلسية الجميلة المؤثرة في نفوس العرب ، بعد أن انتقلوا إلى الأنـدلس ، فشاع غزل الملوك والقادة الكبار من أصحاب الصيت والسمعة والقوة والمنعـة بجـواريهم ، وظهر نفس في هذا الغزل من الخضوع والتذلل ، فأصبح سنة شعرية شاعت بـين الـشعراء كافة ، من غير طبقة الملوك والأمراء ، ومن هنا انساب هـذا الامتـزاج الأدبـي (الغـزل والطبيعة) ، وقد ظهر ابن حزم في كتابة (طوق الحمامة) فلسفة عرب الأندلس في الحـب والعشق ، ودلّنا على ما بلغه ساكن الأندلس من رقة وعذوبة واستعداد للانفعال العاطفي .

وقد ساعد الغناء على نشر هذا اللون من الشعر ، وتكرر في كل أغنية ، وبلغ منه ما بلغ مسامع سكان الأندلس من غير العرب ، فتأثروا بهذا السلوك الجديد ، وانحرفوا إلى اتخاذ موقف جديد من المرأة .

على أن هناك نوعًا آخر من التأثير الفني يهمنا أيضًا ، لأنه يتصل بالتأثير العربي في الآداب الأوربية ، وهو تأثير الموشحات والأزجال في شعر (التروبادور) من عدة نـواحٍ ، أهمها الشكل والمضمون والإيقاع الموسيقي وصور الأسلوب الفني[١٢] .

وتأثير الزجل والموشح الأندلسي في الشعر الاسباني والفرنسي بخاصة ، وفي الشعر الأوربي بعامة ، أمر معترف به بين المستشرقين الأسبان أنفسهم ، ويتجلى التـأثير العربـي واضحًا في كثير من أزجال الأدب الاسباني في العصر الوسيط ، والتي نظمها أدباء أسبان لهم

مكانتهم الكبيرة في أدب أمتهم ، فالشعراء الأسبان الذين استعملوا فن الزجل في أشعارهم كثيرون جدًّا ، نكتفي بأن نذكر هنا أسماء بعضهم ، وهم : الفاريث دي فيلياسا نديو ، والراهب ديكو البلنسي ، وغرسيه فرناندیث دي فيرينا ، ومونتورو ، وغيرهم كثيرون[١٣] .

ب. **القصص**

من المسلم به أن التأثير العربي من جانب الأدب يشمل الشعر والنثر ، وسنتحدث عن الجانب الثاني ، وهو النثر ، متناولين القصص منه ، فقد استمر هذا التأثير في الأدب الأوربي طوال العصور الوسطى ، وفي عصر النهضة ، ومن المعقول أن نتأمل قصص الفروسية والحب في معناها السابق من التأثير العربي في الأدب الاسباني ، لتوافر الصلات بين الأدب الاسباني والثقافة الأوربية منذ الفتح الاسباني للأندلس ، ومن أشهر القصص الاسبانية التي اتخذت مثالاً لقصص الحب والفروسية طوال عصر النهضة ، وأثرت بهذا الطابع من الآداب الأوربية قصتان استمدتا موضوعيهما من موضوعات الحب والفروسية عند العرب ، الأولى للكاتب الاسباني (سان بدور) من رجال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وعنوان قصته (سجن الحب) ، وقد نشرها في العام ١٤٩٢ م ، والقصة الثانية للكاتب الاسباني (جارتي ادونيس) أو (رود ريجيس دي مونثا لفو) ، وعنوانها (أماديس دي جولا)، وقد نشرها في العام ١٥٠٨ م ، وفي القصتين يتفق الجانب العاطفي مع روح الفروسية[١٤] ، وقد أثرت القصتان السابقتان في جميع الآداب الأوربية في عصر النهضة[١٥] .

وفي الأدب الاسباني تظهر التأثيرات العربية قوية بأجلى مظاهرها في الشكل والمضمون جميعًا ، فقد كانت أول ما عرفت أوربا من القصص المستقى من أصول عربية ، هو كتاب (تعليم رجال الدين) ، لمؤلف من أهل وشقة ، يهودي الأصل كان اسمه (موسى سفردى) ، وتشير الدلائل إلى أنه كتب كتابه هذا باللغة العربية ، ثم ترجمه بنفسه إلى اللاتينية ، ويورد في كتابه هذا ثلاثًا وثلاثين أقصوصة شرقية ، نقلها عن حنين بن اسحق ، وكليلة ودمنة ، والسندباد ، وهو يقرر فيه صراحة أنه صنفه من أمثال فلاسفة العرب وحكمهم ، وقد تأثر بهذا الكتاب أدباء أسبان كثيرون مثل : (دون خوان مانويل) في كتابه : (الكوندي لوكانور) ، و(ثرفانيتس) في حكاية العنزات التي قصها (سانجو) على (الدون كيخوته) ليلة الطواحين ، وفي قصة (العجوز الغيور) ومثل تائب أسقف (هتيا) وغيرهم كثيرون[١٦] .

المبحث الثاني

التأثير العربي في الحضارة الأوربية بين الرفض والقبول

قبل الخوض في هذا الموضوع ، لا بد لنا أن نتتبع الآراء التي قيلت عن هذا التأثير ، ولاسيما عند المستشرقين ، حتى نستطيع أن نكشف الغطاء ونجلو الظلمة عن حقائق باتت الآن معروفة ومسلَّم بها ، تقر بوجود مثل هذا التأثير ، وإن رفضه بعض المستشرقين لأسباب ودوافع تكمن في عملية الاستشراق ، منها :

١. الدافع الديني .
٢. الدافع الاستعماري .
٣. الدافع التجاري .
٤. الدافع السياسي .
٥. الدافع العلمي[١٧] .

على أنه يجب أن لا نعتقد أن بناء الاستشراق هو بناء يقوم على الأكاذيب والخرافات والأوهام والأساطير والتخيلات ، التي لا ترتكز على وقائع قوية محسوسة وملموسة[١٨] .

أ. القبول :

لقد كان الأب (خوان أندريس) في القرن الثامن عشر أول من أشار إلى الأثر العربي في الثقافة الاسبانية بخاصة والأوربية بعامة ، ولكنها كانت إشارات سريعة وقصيرة ، وكان معذورًا في ذلك ، إذ لم يكن هنالك من المراجع إلا فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال ، الذي وضعه (ميخائيل الغزيري) اللبناني الأصل في مجلدين بعنوان (مكتبة الاسكوريال العربية الاسبانية) ، ونشره سنة ١٧٧٠ م .

ألف الأب (اندريس) كتابًا بالايطالية بين سنتي ١٧٨٢ ــ ١٧٩٨ م، وسماه (أصول الأدب عامة وتطوراته وحالته الراهنة) ، وأكد فيه : ((أن الفضل في قيام الدراسات الطبية في أوربا يرجع إلى ما كتبة العرب) ، و(إن قيام التأليف العلمي في أوربا في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه إلى العرب) [١٩] .

وذكر الكثير من العلوم التي درسها الأوربيين على يد الأساتذة والعلماء العرب ونقلوها عنهم إلى أوربا .

أما عن التأثير العربي في اسبانيا بخاصة فقد أشار هذا الأب اليسوعي الذي فُصِل من جماعة اليسوعيين ، وطُرِد من اسبانيا ، إلى حقيقة في غاية الأهمية ، وقد أثبتها البحث العلمي فيما بعد ، كما اثبت غيرها من حقائق التأثير العربي في أوربا ، مما أشار إليه (خوان

اندريس) ، وهي الازدواجية اللغوية في الأندلس ، وإقبال الشبان الأسبان على تعلم اللغة العربية ، تعلقًا بها واقتناعًا بفضلها وتفوقها.

وفي مجال الشعر قرر ((أن الشعر الاسباني إنما نشأ ــ أول مرة ــ تقليدًا لشعر العرب ... وإن اختلاط النصارى والمسلمين كان من الطبيعي أن يدفع الأول إلى تقليد الآخرين ... وأن صور هذا الشعر العربي وقوالبه كانت حرية بأن تنتقل إلى بروفنسا عن طريق الصلات المتبادلة بين الفرنسيين والأسبان ــ نصارى ومسلمين ــ وتجوال الشعراء المنشدين المعروفين بـ (التروبادور) ، فنشأ الشعر البروفنسي ، إنما ينتسب إلى العرب أكثر مما ينتسب إلى اليونان واللاتين)) [٢٠] .

ويؤكد ((أن قواعد التقفية التي اتبعها الشعر الشعبي ــ إسبانيًّا أو بروفنسيًّا ــ وأساليب صياغة الشعر الحديث ونظمه مأخوذة عن العرب ، ويصدق ذلك خاصة على الشعر البروفنسي ، الذي أثر بدوره في الشعر الايطالي)) ، وذهب إلى ((أن موسيقى التروبادور وآراء الفونسو العالم في هذا الفن عربية كلها ، وكذلك اللون القصصي المعروف بالفابليو (الخرافات Fabliaux) والحكايات والقصص ترجع في مناشئها إلى أصول عربية)) [٢١] .

وهناك من المستشرقين الذين ابتعدوا بعلمهم عن التعصب الأعمى ، واتسموا بالموضوعية ، وذلك كون نكران الحقيقة لا يجدي نفعًا عند الباحثين الأصلاء ، وأقروا بالتأثير العربي ، كما هو الحال عند (مونتابث مارتبنيث) المتخصص بالأدب العربي الحديث ، وهو القائل : ((إن اسبانيا ما كان لها أن تدخل التاريخ الحضاري لولا القرون الثمانية التي عاشتها في ظل الإسلام وحضارته ، وكانت بذلك باعثة النور والثقافة إلى الأقطار الأوربية المجاورة)) [٢٢] .

ومستشرق آخر يؤكد علميته التي تنأى بنفسها عن التشبث بحقائق بعيدة كل البعد عن الواقع العلمي المطالب بالبراهين ، ليكون منطقيًّا ، وليس أقوالاً جاهزة تُردد ، وهو (مودستو لافونتي) ، إذ قال يوم ٢٣ يناير العام ١٨٥٣ م : ((أيها السادة ، لقد قدم مؤرخونا عبر القرون هذا الشعب الأندلسي على أنه شعب همجي وفظٌّ وغير متحضر ، ناظرين إليه من وجهة نظر دينية بحتة ، وهي فكرة تغفرها الغيرة الدينية التي أوحت بها ، والتي تأصلت في شعبنا على مدار السنين ، إلى أن جاء بعض المستشرقين الذين ينتمون إلى هذه الكنيسة ، فاكتشفوا كنوز الأدب العربي التي كانت توقد مجهولة فيما بيننا)) [٢٣] .

وهو بذلك قد بيَّن لنا سبب عدم قبول الآخر بوجود التأثير العربي عليه ، لأسباب دينية أصلها التعصب والغيرة ، ولكن كنوز الأدب العربي تغلبت على ذلك بإضاءاتها المنيرة لطريق الآخرين .

وهناك من يعجب بالتأثير العربي أيما إعجاب ، إلى حد يطالب بتعريب أوربا ، وهو المستشرق (كوديرا) ــ ١٩١٧ م ــ الذي يعد من أبرز مؤسسي المدرسة الاسبانية ، ويعد من المنصفين لتأثير الحضارة الإسلامية في الأندلس ، وقد قال مقولته المشهورة : (إن من الخطأ العمل على أوربة اسبانيا ، بل الواجب هو تعريب أوربا ، وعلى اسبانيا أن تسترد دورها القديم في هذا التعريب)) [٢٤] .

ومن قبول التأثير العربي ما ذهب إليه (بريفو Briffauti) من تأثير الشعر الأندلسي العربي كله ، وليس الموشحات والأزجال فحسب ، وشعر ابن زيدون والمعتمد بن عباد بخاصة في شعر التروبادور[٢٥] .

وذهب بعض المستشرقين إلى التأثير العربي في الحضارة الأوربية إلى أبعد من التأثير الأدبي ، ليصل به إلى التأثير العلمي ، كما قال (ش . م . دي كرانج) في كتابه (تاريخ الأدب الفرنسي) : ((إن الغزوات العربية جذبت للغرب كنزًا من العلوم المنسية منذ قيام غزاة الشمال باتلافها ، أو إهمالها بواسطة العرب عادت إلينا جل العلوم : الرياضيات ، الطب ، فلسفة أرسطو الخ ... ومعهم حملوا أيضًا شعرًا تصويريًّا (Poesie – imagee) رائعًا أفاد منه شعراء التروبادور ، وقد جلبوا معهم أيضًا قصصًا خيالية عجيبة ، والتي نجد لها آثارًا في الروايات والحكايات الشعبية المنطوقة (Fabiiaux) وعلى العموم ... فنًّا معماريًّا لا زالت بقاياه في اسبانيا ماثلة في أعمال رائعة)) [٢٦] .

وإذا ما أردنا أن نبحث في جهود المستشرقين تجاه الأدب الأندلسي علينا أن نوظف النصوص الأولية لتلك الدراسات ، بما ينسجم مع نظرتنا الخاصة ، وفهمنا للتاريخ والحضارة، فنأخذ من آرائهم ما ينسجم مع هذه النظرة وندع ما لا ينسجم.

ومع ذلك فإن على المرء أن يسأل دائمًا : هل ما يهم في الاستشراق هو المجموعة العامة من الأفكار التي تغلب على (كتلة المادة) ، ومن يستطيع أن ينكر أنها كانت (أفكارًا) مشبعة بمذاهب التفوق الأوربي ، وبشتى أنواع العنصرية العرقية، وبالامبريالية وما إليها ، وبأفكار مذهبية جامدة عن (الشرقي) ، بوصفه تجريدًا مثاليًا ولا متغيرًا ؟ أو العمل الأكثر تنوعًا بكثير الذي أنتجه عدد لا يكاد يحصى من الكتاب الأفراد الذين يدرسهم المرء ، بوصفهم حالات فردية للكتاب الذين يعالجون الشرق[٢٧] .

ب. **الرفض :**

خير من يمثل هذا الاتجاه الكاتب الاسباني (الفارو) ، فبوضوح تام في رسالته التي بيَّن من خلالها أسفه وحزنه الشديدين لما للتأثير العربي على الشباب المسيحي ، وإقبال غير العرب على العلوم العربية ، يقول : ((إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العربي

وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح ، فأين اليوم غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء ؟ واسفاه ! إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبًا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية ، وانهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكثيرة بأغلى الأثمان ، ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الإصغاء إليها ، محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات)) [٢٨] .

والواضح من هذا الخطاب أنه اعترف بالتأثير العربي ، ولكن على مضض وكره لهذا التأثير ، رافضًا الاعتراف به كتأثير طيب على أوربا ، آسفا على إعجاب المسيحيين بشعر العرب وقصصهم ودراستهما ، من دون أن يدحضوها ، وكأنه جعل هذا التأثير مرضًا يريد معالجته ، لا كما هو في الحقيقة انه شفاء لهم وتنوير لعقولهم .

ولم يكن (دوزي) أبرز علماء المدرسة الاستشراقية الهولندية (ت ١٨٨٣ م)، قد نأى بنفسه عن الوقوع تحت طائلة التعصب والانحياز والتحامل على شخصية عظيمة مثل (يوسف بن تاشفين) ، أول ملوك المرابطين وأشهرهم ، حين نعت دولته بالتخلف الفكري والتأخر الأدبي ، وقد رد عليه المستشرق الاسباني (ريبيرا) حين أماط اللثام عن المرابطين، وبيَّن وجوه الإبداع في حضارتهم[٢٩] .

ويرد عليه (ليفي بروفنسال) بقوله : ((لقد حمل المؤرخون على المرابطين منذ نحو قرن تقريبًا ، وإنما تبعوا في ذلك دوزي ، الذي درس تاريخهم دراسة ناقصة لنقص المراجع ، فتمثلوهم برابرة صحراويين متوحشين أجلافًا متعصبين ، طغت جموعهم على اسبانيا لتستبد بها ، ولتخمد فيها كل شيء حتى عبقريتها الخاصة ، وكان ذلك التصوير خطأً فاحشًا وظلماً بيِّنًا ، والحق أن المرابطين حين تدخلوا في أمور اسبانيا الإسلامية كانوا محقين حين استرابوا (كذا) بأمراء عاجزين أو قانعين بالتبعية لملوك المسيحيين ، وقد أعطوهم أرضهم قسمة وتمادوا في تمزيق بعضهم بعضًا))[٣٠].

ومن الأمور التي شغلت الباحثين الأسبان أوجه الشبه الدقيق بين قصة (حي بن يقظان ، لابن طفيل) ــ ولد سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٠ م ، وتوفي سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٥ م ــ والفصول الأولى من قصة (الكرنيكون ــ الناقد) لكراتيا بلتاسار (١٦٠١ ــ ١٦٥٨ م) [٣١] .

وأول من أشار إلى هذا الشبه القوي بينهما (اليسوعي بارتلوم بو) في القرن الثامن عشر ، ثم جاء الناقد الأسباني (ميندث بلايو) ، وحلل أوجه التشابه هذا في مقدمته لترجمة (يونس بويجسن) لقصة (حي بن يقظان) التي ترجمها عن العربية مباشرة .

ثم جاء (د . ك . بتروف) ونفى أن تكون (قصة حي) مصدرًا أخذ عنه (كراثيان) الفصول الأولى لروايته المذكورة ، وقد ذكر هذا الرأي في تعليقه على الترجمة الروسية لرسالة حي بن يقظان[٣٢] .

ونجد موقفًا آخر رافضًا لوجود التأثير العربي على الثقافة الأوربية عند المستشرقين هو (مندث بيدال) الذي اتخذ من تأليف الموشح من فقرات دليلاً على أصله الأعجمي[٣٣] ، رافضًا الاعتراف بأصله العربي ، نافيًا إياه أن يكون شعرًا أو فنًّا عربيًّا مؤثرًا بالشعر الأوربي ، ولاسيما شعراء التروبادور ، ليكون بعيدًا بعدًا كليًّا عن نظرية التأثر والتأثير الموضوعية الخالية من التعصب الديني المؤدي إلى التعصب الفكري ، كما نجد ذلك عند (رينان) الذي قال بتهكم لاذع : ((إن ما اصطلح الناس على تسميته بالحضارة العربية ليس إلا الحضارة اليونانية أذاعها ونقحها ــ لا العرب أنفسهم ــ بل السومريون والكلدانيون والفرس والأسبان ممن أصبحوا عربًا بالفتح أو باللغة))[٣٤] .

الخاتمة

إن الميزة الأساسية للحضارة تكمن في الأخذ والعطاء ، الأخذ من حضارات سبقتها في الزمن والتجربة ، ومن ثم في المعرفة التي لا يمكن أن تصل اليقين ، ثم تبنى على هذا الأساس لتقدم من جديد للبشرية ما أخذته وأضافت إليه ، وبذلك يكون لها الفضل العظيم في تقدم الإنسانية وازدهارها ، لان العيب ليس في الأخذ ، لان الأخذ كالعطاء شيء ضروري ، إذ انه لا يمكن أن يبنى شيء من العدم ، إنما العيب في النقل ومجرد الاكتفاء به من دون السعي إلى التحسين والإضافة ، وقد اصطلح عليه بالتلاقح الثقافي بين الأمم والشعوب .

والحضارة العربية إحدى الحضارات التي أدت دورها ورسالتها الإنسانية ، حينما ساهمت في تطور الحضارة الأوربية المعاصرة ، وهي دعامتها ، إذ لولاها ما كانت لتصل إلى ما هي عليه اليوم ، ولكن التعصب أعمى بصائر بعض العلماء الأوربيين ، فلم يبصروا حقيقة الدور الإنساني الذي قامت به الحضارة العربية في عصور كانت مظلمة بالنسبة إلى أوربا .

هذا المبدأ جوهري بالنسبة إلى الأمم والشعوب ، لأن واجب الشعوب هو الحفاظ على التراث ، لنقله نقلاً صحيحًا وسليمًا إلى الأجيال اللاحقة ، كي تفيد وتستفيد من هذا المخزون الثقافي ، وتنشره بين المجتمعات المتحضرة ، ونجد بذلك الرفض والقبول كاتجاهين يمكن دراستهما دراسة علمية منصفة لا تعصب فيها ، من دون أن يكون هناك حكم مسبق تجاه أي منها ، فهناك من أجرم في حق الحضارة العربية وأغمط حقها ، مثل (رينان) في محاضرة ألقاها سنة ١٨٨٣ م ، حول فكرة الحضارة العربية، ومع ذلك فهناك من أنصف وأشار إلى فضل الحضارة العربية ، وشهد لها مثل (بروفنسال) و(بلانثيا) ، وحتى في بعض الأحيان (دوزي) ، إذ نجد له إشارات تبيِّن أثر الحضارة العربية في تكوين الفكر الأوربي .

هوامش البحث وقائمة المصادر والمراجع

(1) ينظر : أثر العرب في الحضارة الأوربية ــ عباس محمود العقاد ــ الناشر : دار المعارف بمصر ــ سنة ١٩٦٨ م . ص ٦٦

(2) تنظر هذه الكلمات في كتاب : فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث الهجري ــ الدكتور حكمة الأوسي ــ مكتبة النهضة ــ بغداد ــ ط ٢ / ١٩٧٤ م . ص ١٤٧ .

(3) ينظر : المصدر نفسه . ص ١٤٩ .

(4) أثر العرب في الحضارة الأوربية . ص ٦٩ .

(5) المصدر نفسه . ص ٧٠ .

(6)المصدر نفسه .

(7) ينظر : الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ــ الدكتور مصطفى الشكعة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ط ٢ / ١٩٧٤ . ص ٧٥ .

(8) ينظر : التأثير العربي في الثقافة الاسبانية ــ الدكتور حكمة الأوسي ــ الموسوعة الصغيرة (١٥٢) تصدرها دار الشؤون الثقافية العامة ــ بغداد ــ الجمهورية العراقية ــ ١٩٨٤ م ــ دار الحرية للطباعة . ص ١٧ .

(9) تنظر : مقدمة ديوان ابن زيدون ورسائله ــ شرح وتعليق : علي عبد العظيم ــ طبع ونشر مكتبة النهضة بالفجالة ــ مصر ــ ط ١ / ١٩٥٧ م . ص ٨٢ .

(10) ديوانه . ص ٢٠٥ .

(11) ينظر : الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ــ الدكتور منجد مصطفى بهجة ــ نشر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ــ جامعة الموصل ــ ط ١ / ١٩٨٨ م . ص ٢٩٢ .

(12) يمكن مراجعة هذا التأثير بالتفصيل في كتاب : الأدب المقارن ــ الدكتور محمد غنيمي هلال ــ مكتبة الانجلو المصرية ــ القاهرة ــ ط ٣ / ١٩٦٢ م . ص ٢٧٠ ، وكتاب : الأدب المقارن ــ الدكتور جميل نصيف ، والدكتور داود سلوم ــ طبع على نفقة جامعة بغداد ــ مطبعة وزارة التعليم العالي ــ بغداد ــ ١٩٨٩ م . ص ٢٩٠ .

(13) ينظر : فصول في الأدب الأندلسي . ص ١٥٩ .

(14) ينظر : الأدب المقارن ، الدكتور محمد غنيمي هلال . ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ .

(15) ينظر : مفهوم الفروسية في التراث العربي وأثره في فروسية القرون الوسطى في أوربا ــ بو جرار فوزيه ــ دار الشؤون الثقافية العامة ــ العراق ــ بغداد ــ ١٩٨٦ م . ص ١٤ .

(16)ينظر : فصول في الأدب الأندلسي . ص ١٥٤ .

(17) ينظر : الاستشراق والمستشرقين ما لهم وما عليهم ــ الدكتور مصطفى السباعي ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ لبنان ــ ط ٢ / ١٩٧١ م . ص ١٥ وما بعدها لمعرفة تفاصيل هذه الدوافع .

(18) للاستزادة من هذا الموضوع ينظر : بحث الاستشراق والمستشرقون ــ أحمد أبو زيد ــ مجلة عالم الفكر ــ المجلد العاشر ــ العدد الثاني ــ تموز ــ ١٩٧٩ ــ وزارة الإعلام ــ الكويت . ص ٢٥٩ .

(19) التأثير العربي في الثقافة الاسبانية . ص ٣٤ .

(20) المصدر نفسه . ص ٣٦ .

(21) المصدر نفسه . ص ٣٧ .

(22) المستشرقون ــ نجيب العقيقي ــ طبع ونشر دار المعارف بمصر ــ ١٩٦٥ م . ج ١ / ص ٦٩٦ .

(23) القيم والخصال في شجرة الاستشراق الاسباني ــ الدكتور جمعة شيخة ــ طبع في مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البايطين للإبداع الشعري ــ الكويت ــ ٢٠٠٤ م . ص ٧٩ .

(24) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة . ص ٣٧ .

(25) ينظر : صلة الموشحات والأزجال بشعر التروبادور ــ الدكتور عبد الهادي زاهر ــ كلية الآداب ــ جامعة عين شمس ــ الناشر مكتبة الشباب ــ مصر ١٩٨٦ م . ص ٨ .

(26) مفهوم الفروسية في التراث العربي . ص ١١ .

(27) ينظر : الاستشراق ــ المعرفة ــ السلطة ــ الإنشاء ــ أدوارد سعيد ــ نقله إلى العربية : كمال أبو ديب ــ الناشر مؤسسة الأبحاث العربية ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة العربية الأولى ــ ١٩٨١ .ص ٤٣.

(28) أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ــ أعددت هذه الدراسة بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون من منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ــ ١٩٧٠ . ص ٧٠ .

(29) ينظر : الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة . ص ٣٥ .

(30) أدب الأندلس وتاريخها ــ سلسلة محاضرات عامة ألقاها ليفي بروفنسال عامي ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ م ــ ترجمها إلى العربية : محمد عبد الهادي شعيرة ــ وراجعها : عبد الحميد العبادي بك ــ طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ــ ١٩٥١ م . ص ١٦ .

(31)ينظر : فصول في الأدب الأندلسي . ص ١٥٦ .

(32) ينظر ك المصدر نفسه .

(33) ينظر : نظرية نشأة الموشحات الأندلسية ــ مقداد رحيم ــ الموسوعة الصغيرة (٢٣٣) ـــ دار الشؤون الثقافية العامة ــ وزارة الثقافة والإعلام ــ العراق ــ ١٩٨٦ . ص ٩ .

(34) مفهوم الفروسية في التراث العربي . ص ١٠ .